

بياع الخواتم

....

في هذا العمل المسرحي البديع خصوصية بيئية واجتماعية مليئة بروح الإبداع الرحباني والجمال المتدفق صوراً وألحاناً وقيماً فنيّة تُسجّل أيضاً للأخوين رحباني وللمخرج صبري الشريف، الذي تعاون مع الأخوين لتحويل هذه المسرحية إلى فيلم سينمائي أخرجه يوسف شاهين في العام ١٩٦٥ وصوّرت مشاهدّه في منطقة (ضهور الشوّير، المتن، بيت شباب) في جبل لبنان.

....

ريما: رَحْ نِحْكِي قِصَّةَ ضَيْعَةٍ
لا القِصَّةَ صَحيحةً
و لا الضَيْعَةَ مَوْجُودَةً
بَسَّ بِلَيْلَةٍ
هُوِّيْ وَضَجْرَانُ
خَرَّتْشْ إِنْسَانِ عَ وَرَقَّةَ
صَارَتِ القِصَّةَ
وَعَمَرَتِ الضَيْعَةَ..

لحن البداية اللذيذ الذي توحى نغماته بالرّفة والنعمومة يضعنا في بيئة الضيعة الجميلة وتخومها وبساتينها وصخورها المؤشّحة بألوان حياة الناس وأفراحهم وآمالهم وبحكايا الأجيال التي نقشت على سطوح هذه الصخور فغدت السجّل الصادق والتراث الخالد والأدب الشعبي الذي يحفّ الجمال به من كل جانب والذي تسمو بمكوناته الروح وتتأجج مشاعر الحب وتحلق الأحلام في فضاءات لا حدود لرحابتها.

....

الساحة، التي غادرها الضيوف وعيد وفضلو تاركين المختار وريما، ودعتْ هي الأخرى حالة البهجة والفرح ليحلّ الصمت الحزين فوق مقاعدها الحجرية الباردة. وتتوجه ريما إلى خالها بالتساؤل حول موضوع أصبحت له عندها هواجسٌ مقلقة، فيدور بينهما ديالوج ناعم منغمّ:

ريما: لَأَيْمَتِي رَحْ ضَلَّ يَا خَالِي
تَحْكِي وَإِشْهَدَلْكَ شَوْ هَالْحَالِيَّةَ

المختار: يا بِنْتَ إِخْتِي انْ ما شَهَدْتِي لي
مين رَحَّ شَهَّدْ على حالي
ريما: مازال راجح مجرم وجارح
ليش حتى نقاتلو لراجح؟
المختار: ما فيش راجح كبري عقلك

خالِك يا ريما اللي اخترع راجح

....

نحن الآن في الغابة التي يتوافد إليها العشاق وقد تزيّنت الأشجار والزوايا وتلألأ المكان بقدود الفتيان والفتيات ولباسهم الأنيق ووجوههم الباسمة وتراقصت أغصان الأشجار على إيقاعات حركة القادمين والقادمات، و(ريما) إدهن وقد جاءت خلسة بعد أن خلد أهلها إلى الراحة ظناً منهم بأنها لن تغامر وتذهب إلى الاحتفال وتعرض نفسها لخطورة الالتقاء براجح! وتغني ريما بإيقاعية ذات رتابة تنسجم مع مشيتها في الغابة باتجاه باحة التجمُّع وعلى نفس الإيقاع الذي يزيد من عذوبته بروز أصوات الدف والصنج تتمايل قدود الوافدين إلى ملتقى العيد بفرح وأمل تحمل الصبايا أفاص عصافير ملوَّنة رمزاً للعش الذي تسعين لبنائه مع من له معهن نصيب الخطوبة والزواج ويلوح الفتيان بمحارمهم الملوَّنة بألوان الطيف والمعطرّة بعبق الحب وبالأمل بالأيام السعيدة، والأغنية من مقام (حجاز) وذات طابع زجلي (قرآدي).

ريما: إمِّي نامتْ عَ بكَّير
وَسَكَّرَ بِيَّ البُوَّابة
وأنا هُرَبْتُ مِنْ الشَّبَّابْ
وَرَحْتُ لَعِيدِ العِرَّابة
الكورس: إمِّي نامتْ عَ بكَّير..

....

المختار: راجح كذبة.. بس مين ياللي اشتلق ع اللعية؟

بسيطة.. غدروني غدر..

أخدوا الجاكيثا.. فيها مية ليرة.. وفيها تذكرة النفوس..

ويتابع معزياً نفسه ومتظاهراً عدم التأثر (ما أنا المختار.. بعمل غيرا !!) ويتوجه إلى داره مطرّقاً وقد أقل ضوء النهار فيصافده صيادو العصافير وهم عائدون، يرمقونه بنظرة استغراب:

الصيادون: ليش تَ غير العادة مفرغ يامختار؟
المختار: جايي من البيت مفرغ و عم بعمل مشوار
الصيادون: شوفتك زعلان شوي وسارح يامختار؟

المختار: سارح هَيْكُ بِإِشْيَا حَلْوَةٌ وَ عَمَّ بِنِظْمُ أَشْعَارِ

ويكتفي الشباب ويصدقون المختار كالعادة ثم لا يلبثون أن يجددوا ولاءهم له بسبب حمايته إياهم من بطش راجح:

الصيادون: وشو أخبار راجح؟

المختار: شو بدنا براجح

قولولي ما جبئوشي؟

الهيئة ماتصيدتوشي!

الصيادون: والله بزمنا ما توفقنا

المختار: إنتو ما بتعرفو تصيدو

هاتولي هالجفت وحدا يزتللي الطربوش

لقد وجدها المختار فرصة ذهبية لتحويل الأنظار عن حالته وعما يجري في الضيعة ولهذا فهو يحاول أن يثبت للصيادين أنه مازال المختار القادر على حماية الأهالي.. يتناول أحد الصيادين طربوش المختار ويقذف به إلى الأعلى فيما يتمنى الآخرون له التوفيق.. ولم يوفق:

الصيادون: الله معك يا مختار

واحد.. تثنين.. ثلاثة.. (بوف)

ما صابو.. نسي ع قلة العادة

المختار: بسّ وله.. ولك أنا شيخ الصياده

....

ويدخل الموكب المؤلف من الشباب والصبايا الذين اتفقوا على إعلان الخطوبة هذا الموسم وقد تزينت الفتيات ولبسن الفساتين البيضاء المزركشة وظهر الشبان الثلاثة بأناقتهن وهيبة الرجولة تملأ وجوههم وقد أحيطت الأزواج الثلاثة من الجانبين بحاملي الهدايا والحلوى وبالصبايا تحملن الشرائط الملونة وسلات الزهور وتقدم الجميع إلى باحة المكان على إيقاع جميل عزفت لحنه الشعبي التقليدي اللذيذ الأوركسترا تصحبها الفتيات تغنين للخطيبات بنعومة وهدوء يناسب المشية البطيئة للموكب المتقدم:

الفتيات: طلي ضحكيلو يا صبية ضوي بقلبو غنيّة

هايدا خطيبك قوليلو صارت صحيحة الخبريّة

يا صبيّة

يا قمرية هنية طلي ضحكيلو يا صبية

....

وترد ريما بتوجيه الكلام إلى بياح الخواتم.. بياح الفرح.. الذي انتصرت المحبة بقدمه وعادت للناس طمأنينتهم ولموسم الخطبة ألقه:

ريما: يابَيَّاعِ الخَوَاتِمِ
بِالمَوْسِمِ اللَّيِّ جايي جيب لي مَعَكَ شي خاتِمِ
يابَيَّاعِ الخَوَاتِمِ
رَحْ يَتْرِكُنِي حَبِيبِي حَبِسْ لي حَبِيبِي بُخَاتِمِ

....

وتقترب فيروز خطوتين إلى الأمام وتتوجه إلى جمهورها الحبيب إلى قلبها كما هي بالنسبة إليهم وتلخص المسرحية ثانية بمقدمتها مذكِّرة إيانا بالحقيقة:

فيروز: مِتَلْ ما قِلْنا لِكُنْ
هايْدي كانت قِصَّة ضيِّعة
الجَمِيع: لا القِصَّة صَحِيحَة
وَلَا الضيِّعَة مَوْجُودَة
خَلِصَتِ الأشْعارِ وَخَلِصَتِ السَّهْرِيَّة
وَسَرَبَتِ القُمَارِ وَطَلَعَتِ عَ الصَّيْفِيَّة
حَكِينا الحِكايةِ وَالْحِكايةِ حِكايةِ
حِكايةِ حِكايةِ